75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ المجلد الخامس ـ العدد الثالث ١٣٩٦ـ١٩٧٦

ابن القرية

بقلم

حبيب علي

من الاقوال المأثورة ان اربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل وهم « الشعبي وعبدالملك والحجاج وابن القرّية » (١) .

اما ابن القرّية فقد كان شخصية مغمورة في مستهل حياته ، حيث كان اميا لا يحسن القراءة والكتابة ولكنه اوتي من وفرة العقل وحدّة الذكاء الحفظ الاوفر ، فكان خطيبا مصقعا ومتكلما مفوّها لا يشق له غبار ، ولا يمسك عليه بلحن ، وفوق كل هذا كان له راي وحكمة جعلت الحجاج يعتمد عليه لا في المسائل العامة حسب ، بل وفي اموره الخاصة كما سنرى فيما بعد .

الشك في شخصية ابن القرية :

قبل ان نتناول حياته واخباره لابد لنا ان نقف عند رواية اوردها ابو الفرج الاصبهاني في معرض الحديث عن اخبار مجنون بني عامر ، فهو بعد ان يسرد ما سمعه من اخباره واشعاره يذكر حديثا منسوبا الى عوانه(٢) مؤداه ان « ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن ابى العقب صاحب قصيدة الملاحم وابن القرية . ومجنون بني عامر (٣) » فهل كان ابن القرية شخصية واقعية لعبت دورها على مسرح الاحداث ؟ ام كان من اولئك الاشخاص الذين صانعهم خيال الرواة والقصاص ؟! (٤) .

ولابد لنا من الاشارة الى ان الاصبهاني وحده قد انفرد بذكر هذه الرواية ولم يشر الى عوانة من هو ، ولكن الطبري المؤرخ المعروف بتحريه للحقائق يورد رواية منسوبة الى عوانه ـ والارجح انه عوانة الكلبي ـ وهي تناقض ما اورده الاصبهاني ومؤدي هذه الرواية « قال هشام قال عوانة حين منع الحجاج من الكلام ابن القرّية ، قال له ابن القرّية : والله لو كنت انا انت على السواء لكنا جميعا او لافتينا منيعا(٥) » وهذا يعني ان عوانة هذا كان علم ببعض اخبار ابن القرية ، باعتبار انه شخصية تاريخية .

كان الاصبهاني يعتمد منهجه على جمع الروايات التي يتوصل اليها ، وقد يتوخى الطرافة في بعض الاحيان ، وان نظرة واحدة الى ما اورده من اخبار مجنون بني عامر وما نسبه اليه من شعر ـ مع انه كان شاكا في وجود مثل هذه الشخصية ـ تكفي للتدليل على ذلك (٦) .

واذا علمنا ان المؤرخين يكاد ينعقد اجماعهم على وجود شخصية حقيقية هي شخصية ابن القرّية واسمه ايوب بن زيد(٧) وكنيته ابو سليمان(٨) وان مقتله على يدي الحجاج بعد حوار دار بينهما سوف نذكره وذلك عام ٨٤هـ(٩) ، مع

---

(١) اخبار الزجاجي (م) لوحة ٣٠ نقلا عن كتاب « القرآن الكريم واثره في الدراسات النقدية » تاليف عبدالعال مكرم ص ٥٨ .

(٢) هو عوانه بن الكلبي كما يقول بروكلمان ١/٢٠٠ (الترجمة العربية) .

(٣) نسب بروكلمان هذه الرواية الى ابن الكلبي كما ورد في الهامش (٢) وهذا القول اورده صاحب الاغاني ٩/٢ .

(٤) نشير الى ما كتبه الدكتور طه حسين في «الادب الجاهلي» الذي طبع للمرة الاولى تحت عنوان «في الشعر الجاهلي» وما اثاره من شكوك حول روايات ابن اسحق في تاريخه وهو من اقدم المؤرخين ، ويقول ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ص ٤١ بان « ابن اسحق قد حمل كل غثاء من الشعر » .

(٥) الطبري : حوادث سنة ٨٤ في معرض الحديث عن مقتل ابن القرّية .

(٦) انظر الصفحات من ٦ـ١٠ من الجزء الثاني من الاغاني ، والروايات التي فيها تدل على ان المجنون كان من صنع الخيال ومنها ان ايوب بن عباية حدثه من سأل بني عامر بطنا بطنا عن المجنون فما وجد فيهم احدا يعرفه ٩/٢ ، وقال الجاحظ « ما ترك الناس شعرا مجهول القائل في ليلى الا نسبوه الى المجنون » ٨/٢ الاغاني ، وانظر ما كتبه الدكتور زكي مبارك تحت عنوان «روايات الاغاني» في مجلة المقتطف المصرية عدد يوليو سنة ١٩٣٠ وقد اتهمه بانه يعطي صورة غير صحيحة عن العصور التي يتحدث عنهـا .

(٧) البيان والتبيين ١١٢/١ ، والنجوم الزاهرة ٢٠٧/١ والمعارف ٤٠٤ .

(٨) ابن خلكان ٢٢٧/١ ، والمعارف ص ٤٠٤ ، والبيان والتبيين ٢٠/١ .

(٩) وفيات الاعيان ٢٢٧/١ ، ابن الاثير حوادث سنة ٨٤ ، الطبري حوادث سنة ٨٤ ، ابن تغرى بردى حوادث سنة

الخلافات يسيرة في بعض التفاصيل ، ادركنا ان وجوده كان حقيقة لا وهما .

وهناك بعض الاختلافات حول شخصية (القرّية) التي ينتسب اليها ايوب ، فالبعض يقول انها امه(١٠) والبعض الآخر يقول ان جده كان ابنا للقرّية التي تزوجها مالك ابن عمرو وان كليبا جد العباس بن عبدالمطلب من سلالتها فالعباس (عم النبي) يكون من اولاد القرّية بهذا الاعتبار ، والبعض الآخر يقول انها جدته(١١) .

وذكر ابن قتيبه(١٢) ان ابن القرّية هلالي اي من بني هلال بن ربيعة بن زيد بن مناة ولكن ابن خلكان يشير الى رواية مسندة الى ابن الكلبي(١٣) ان ابن القرّية من بني مالك بن عمرو ابن زيد بن مناة فما يجتمع هلال ومالك الا في زيد ، وهي اختلافات يسيرة لا تدفعنا الى الشك في شخصية الرجل ، كما ان هناك رواية اخرى لابن عبد ربه انه من سلالة عوف بن سعد الذي ينتسب الى ربيعة قبل شيبان(١٤) .

ولعل من الاسباب التي دفعت الى الشك في وجوده ـ وقد اشتهر امره بين العامة في العصر العباسي ـ انه من المحتمل قد اضيف اليه ما لم يقل او يفعل ، وقد يكون سبب شهرته بين العامة آنذاك مصرعه على يدي الحجاج والموقف البطولي الذي وقفه ازاءه ، ويقول الجاحظ في هذا الصدد « ... وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو اولى به ، الا ترى العامة ابن القرّية عندها اشهر في الخطابة من سحبان وائل ، وعبدالله بن الحر اذكر في الفروسية عندهم من زهير بن ذؤيب وكذلك مذهبهم في عنترة بن شداد وعتبة بن الحارث بن شهاب، وهم يضربون المثل بعمرو بن معديكرب ولا يعرفون بسطام بن قيس » (١٥) .

بعض اخباره :

تقتصر اخبار ابن القرّية التي اوردها المؤرخون على علاقاته مع الحجاج وعامله حوشب ابن يزيد وعبدالرحمن بن الاشعث(١٦) وهي بمجموعها تؤكد حقيقة وجوده ومقتله صبرا على يدي الحجاج ، وهذه بعض تلك الاخبار :

١ ـ الخبر الذي يشير الى كيفة تعرّف الحجاج على ابن القرّية وكيفية خروجه عليه ، وهو انه كان قد اصابته السنة واشتد به العوز فقدم عين التمر وعليها وال للحجاج كان يفدي ويعشي كل يوم ، وكان ابن القرّية بين هؤلاء الذين يحضرون غداءه وعشاءه ، وقد لاحظ ان العامل لم يحضر طعام الغداء في احد الايام بسبب ورود كتاب غريب من الحجاج لا يدري ما هو ، فادرك ابن القرّية الموقف وعرض مساعدته للعامل الذي وافق ان يملي على كاتبه جوابا للحجاج ، وقد ادرك الحجاج ان هذا ليس من صنع عامله فطلب اليه ان يشخص اليه على جناح السرعة ذلك الذي صنع جواب كتابه ، فبعث به اليه وحين كلمه اعجب بفصاحته وبلاغته، واخذ يعتمد عليه في مهامه ، من ذلك انه ارسله الى الخليفة الوليد (١٧) ، ولكن لم يذكر المؤرخون شيئا عن المهمة التي ارسله من اجلها. ولا الحوار الذي دار بينه وبين الوليد ، بينما يسجل المؤرخون محاورات عدة جرت بينه وبين الحجاج ، ويذكرون اخباراً عن مهمات خاصة بعثه بها الحجاج كالخطوبة او الطلاق من بعض ازواجه كما سوف نذكر .

٢ ـ ذكر الطبري ان ابن القرّية كان يدخل على حوشب بن يزيد (عامل الحجاج على الكوفة) بعد انصرافه من ديسر الجماجم (وهي الواقعة التي جرت بين الحجاج وعبدالرحمن بن الاشعث حين خرج هذا على الطاعة في ولاية سجستان) فيقول حوشب : انظروا الى هذا الواقف معي ، وغدا او بعد غد ياتي كتاب من الامير (اي الحجاج) لا استطيع الا انفاذه ، فبينما هو واقف ذات يوم ، اذ اتاه كتاب من الحجاج يقول فيه « اما بعد فانك صرت كهفا لمنافقي اهل العراق وماوى ، فاذا نظرت في كتابي هذا فابعث الي ابن القرّية مشدودة يداه الى عنقه مع نقة من قبلك » فلما قرا حوشب الكتاب رمى به فقراه وقال : سمعا وطاعة فبعث به الى الحجاج موثقا(١٨) ، ويمكن الاستنباط من رواية الطبري هذه ان عامل الحجاج قد استدرج ابن القرّية وقد يكون اعطاه الامان ان لا ضير عليه ، فلما قبض عليه ارسله الى الحجاج بناء على طلبه ، اذ من المستبعد ان يشترك ابن القرّية في معركة دير الجماجم الى جانب ابن الاشعث ثم يطمئن الى ملازمة مجلس احد عمال الحجاج المعروف بشدة بطشه وفتكه بمن يشتبه انهم خصومه ، فكيف بمن وقف مع عدوه في العلانية ، وحمل السيف ضده ؟!

٣ ـ ويقول ابن خلكان « لما خلع عبدالرحمن بن الاشعث الطاعة بسجستان ، وهي واقعة مشهورة ، بعثه الحجاج ـ اي ابن القرّية ـ اليه رسولا ، فلما دخل عليه ، قال : لتقومن خطيبا ، وتخلعن عبدالملك ، ولتسبن الحجاج او لاضربن عنقك ! فقال : ايها الامير انما انا رسول ، قال : هو ما اقول لك ، فقام وخطب وخلع عبدالملك وشتم الحجاج ، واقام هنالك ، فلما انصرف ابن الاشعث مهزوما كتب الحجاج الى عماله بالرى واصفهان وما يليهما بامرهم الا يمر بهم احد من قبل ابن الاشعث الا بعثوا به اسيرا اليه ، واخذ ابن القرّية فيمن اخذ(١٩) .

---

٨٤ ، وينفرد المسعودي في القول ان مقتل ابن القرّية كان سنة ٨٢ انظر المروج ٣/٨٠ ، ولعل الذي اوقعه في هذا الالتباس ان خروج ابن الاشعث على الحكم الاموي كان في تلك السنة .

(١٠) المعارف لابن قتيبة ص ٥٩٨ في باب « المنسوبين الى غير آبائهم وعشائرهم » وانظر ص ٤٠٤ من هذا الكتاب .

(١١) انظر ابن خلكان الترجمة ٨٤ والفهرست لابن النديم ص ١٧٠ .

(١٢) المعارف ٤٠٤ .

(١٣) ابن خلكان ١/٢٢٧ والذهبي ٣/٢٤٣ .

(١٤) العقد الفريد ٣/٢٧٦ .

(١٥) البيان التبيين ١/٢٠ وبسطام بن قيس فارس بني شيبان وسيدها في الجاهلية وقد ادرك الاسلام ولم يسلم .

(١٦) الطبري / حوادث سنة ٨٤ ، وزهر الآداب ٤/٤٩ ، والنجوم الزاهرة ١/٢٠٧ .

(١٧) وفيات الاعيان ١/٢٢٧ والذهبي ٣/٢٤٣ .

(١٨) الطبري/حوادث سنة ٨٤ .

(١٩) وفيات الاعيان ١/٢٢٨ ، الذهبي ٣/٢٤٣

موقفه من الحجاج :

تشير الروايات الى ان الحجاج كان يعتمد على ابن القرّية في اموره العامة والخاصة ، فقد ذكرنا انه اوفده الى عبدالملك في بعض مهامه ، وقيل انه اوفده الى ابن الاشعث ليقنعه الى العدول عما هم به ويعيده الى الطاعة للحكم الاموي ، ولكن ابن الاشعث ارغمه ان يقف الى جانبه ضد الحكم الاموي كما بينا .

ومن المهمات الخاصة التي انتدبه اليها خطبته هند بنت اسماء زوج الحجاج حيث طلب من ابن القرّية ان يخطبها والا يزيد على ثلاث كلمات فقال : اتيتكم من عند من تعلمون ، والامير يعطيكم ما تسالون افتنكحون ام تردون ؟! فالوا بل انكحنا وانعمنا ، فرجع ابن القرّية الى الحجاج فقال : اقر الله عينك وجمع شملك ، وانبت ربعك على الثبات ، والفنى حتى الممات ..... (٢٠) .

وحين اراد الحجاج ان يطلق هندا هذه استخدمه لهذه المهمة ، وطلب منه ان يطلقها بكلمتين ويمتعها بعشرة آلاف درهم فقال لها : ان الحجاج يقول لك : كنت فبنت ، وهذه عشرة الاف متعة لك ، فقالت : كنا فما حمدنا ، وبنّا فما ندمنا ، وهذه العشرة الاف لك ببشارتك اياي بطلاقي(٢١) .

ومهما بلغ هذان الخبران من الصحة او الوضع ، فان اثباتهما او نفيهما لا يؤثر على حقيقة وجود ابن القرّية .

مقتله :

تواترت الروايات ان مقتل ابن القرّية كان على يد الحجاج سنة ٨٤هـ ، ومعظمها يشير الى المحاورة التالية التي جرت بين الاثنين :

الحجاج ـ ماذا اعددت لهذا الموقف ؟

ابن القرّية ـ ثلاثة حروف كانهن ركب وقوف : دنيا وآخرة ومعروف .

الحجاج ـ اخرج عما انت فيه .

ابن القرّية ـ افعل ! اما الدنيا ، فمال حاضر ياكل منه البر والفاجر ، واما الآخرة فميزان عادل ، ومشهد ليس فيه باطل ، اما المعروف فان كان لي اعترفت وان كان لي اعترفت ثم اردف قائلا : اصلح الله الامير اقلني عثرتي ، واسقني ريقي ، فانه ليس جواد الا له كبوة ، ولا شجاع الا له هبوة ، قال الحجاج ـ والله لارينك جهنم ، قال فارحني فاني اجد حرها . قال : قدّم ياحرس فاضرب عنقه ، فلما نظر اليه الحجاج يتشحط في دمه قال : لو كنا تركنا ابن القرّيه حتى نسمع من كلامه (٢٢) . وهذا يعني ان الحجاج قد ندم على قتله(٢٣) .

(٢٠) عيون الاخبار ٣/٦٩ .
(٢١) عيون الاخبار ٢/٢٠٩ .
(٢٢) الطبري/حوادث ٨٤ وزهر الآداب ٢/٩٠٥ .
(٢٣) المصدر نفسه وانظر زهر الآداب ٤/٤٩

نبذ من اقواله :

سارت كثير من اقوال ابن القرّية بين الناس مسير الامثال ، ولعل احتواءها على الحكم والآراء السديدة ، وما فيها من ازدواج او سجع قد كانت هذه كلها عوامل ساعدت على ذيوعها وانتشارها هذا فوق ما اشتهر به الرجل في مجال الفصاحة والخطابة ، ولعل الطريقة التي انتهت حياته بها ، ساعدت على شهرته وانتشار اقواله ، حتى اخذ فريق من الادباء يقتبس منها ، ومن ذلك ما رواه الجاحظ ان الخريمي وصف شعر نفسه في مديح ابى دلف ، حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

ويظنون ان الخريمي انما احتذى في هذا البيت على كلام ايوب بن القرّية ، حين قال له بعض السلاطين : ما اعددت لهذا الموقف ، قال ثلاثة حروف ، كانهن ركب وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف(٢٤) ، ومعلوم لدينا ـ كما تقدم ـ ان هذه المحاورة كانت مع الحجاج .

وفي (مجاني الادب) وصف للمزاح على لسانه اذ يقول « المزاح اوله فرح وآخره ترح والمزاح نقائض السفهاء كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح يوغر صدر الصديق ، وينفر الرفيق(٢٥) » .

وقال في اصناف الناس « الناس ثلاثة عاقل واحمق وفاجر، اما العاقل فان الدين شريعته والحلم طبيعته والراي الحسن سجيته ، ان نطق اصاب ، وان كلم اجاب ، وان سمع العلم وعى وان سمع الفقه روى . اما الاحمق فان تكلم على عجل ، وان حدّث ذهل وان حمل على القبيح حمل ، واما الفاجر فان استامنته خانك ، وان صاحبته شانك ، وان استكتمته لم يكتم ، وان علّم لم يعلّم ، وان حدث لم يصدق ، وان فقه لم يفقه(٢٦) .

ومن الاسجاع المنسوبة اليه ، قوله وقد كان دعى للكلام او احتبس عليه القول « قد طال السهر ، وسقط القمر واشتد المطر فماذا ينتظر ؟ » فاجابه فتى من بني عبد القيس « قد طال الارق ، وسقط الشفق وكثر اللغط فلينطق من نطق »(٢٧) .

ويذكر ابن خلكان محاورة تبلغ ثلاث صفحات من كتابه ، بين الحجاج وابن القرّية عن صفات الناس والارضين ، نجتزىء منها ما يلي ، ويمكن الرجوع اليها كاملة في مظانها(٢٨)

الحجاج ـ خبرني عما اسالك عنه .

ابن القرّية ـ سلني عما شئت .

الحجاج ـ فاخبرني عن اهل العراق .

ابن القرّية ـ اعلم الناس بحق وباطل .

(٢٤) البيان والتبيين ١/١١٢ .
(٢٥) مجاني الادب ٢/١٢٠ وزهر الآداب ١/٤٧٦ .
(٢٦) مروج الذهب ٣/٨٠ .
(٢٧) البيان والتبيين ١/٢٩٨ .
(٢٨) وفيات الاعيان ١/٢٨ـ٢٣٠ .

قال ـ فاهل الحجاز ، قال ـ اسرع الناس الى فتنـــــه واعجزهم فيها .

قال ـ فاهل الشام ، قال ـ اطوع الناس لخلفائهم .

قال ـ فاهل مصر ، قال ـ عبيد لمن غلب .

قال ـ فاهل البحرين ، قال ـ نبط استعربوا .

قال ـ فاهل عمان ، قال ـ عرب استنبطوا .

قال ـ فاهل الموصل ، قال ـ اشجع فرسان واقتل للاقران.

قال ـ فاهل اليمن ، قال ـ اهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة.

قال ـ فاهل اليمامة ، قال ـ اهل جفاء واختلاف للاهواء .

قال ـ فاهل فارس ، قال ـ اهل باس شديد وشر عتيد ، وريف كبير وقرى يسير .

قال ـ اخبرني عن العرب ، قال ـ سلني .

قال ـ قريش ، قال ـ اعظمها احلاما ، واكرمها مقاما .

قال فبنو عامر ، قال ـ اطولها رماحا ، واكرمها صباحا .

قال ـ فبنو سلئيم ، قال ـ اعظمها مجالس ، واكرمهـا محابس ..... الخ

وساله بعض العلماء عن حد الدهاء ، فقال : هو تجرع الغصة وتوقع الفرصة . ومن كلامه في صفة العي ـ هو التنحنح من غير داء والتثاؤب من غير ريبة ، والاكباب في الارض من غـير علـــه (٢٩) .

وروى ان الحجاج بن يوسف الثقفي ، سال ابن القرّية عن صفات الجواد ، فقال : نعم اصلح الله الامير ! الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، الرحب الثلاث ، الصالي الثلاث ، قال : صفهن وبيّن لغلك ، فقال : اما الطويل الثلاث ، فالاذن والعنـــق والذراع ، واما القصير الثلاث ، فالمسيب والساق والظهر ، واما الرحب الثلاث ، فالجوف والمنخر والجبهة ، واما الصالي الثلاث ، فالاديم والعين والحافر(٣٠) .

وبعد كل هذا نستطيع ان نرجح ترجيحا اقرب ما يكون الى اليقين ان ابن القرّية كان شخصية واقعية وليس من صنع الخيـــال ..

---

(٢٩) المصدر نفسه .

(٣٠) بلوغ الارب في احوال العرب ٨٤/٢ .